رجلين أو يصفّق بجناحين. وإنّ في تلك السكتة لخشوعاً لا يشعر بمثله المصلّون في المعابد، ولا المتأمّلون في المناسك. فهي الصلاة ما تمتمت بها شفتان، وهي العبادة ما انحنت فيها ركبتان، وهي الأعماق من تحتها الأعماق، والأعالي من فوقها الأعالي. يدرج القلب في منعطفاتها فلا يعثر، ويحلّق الخيال في أجوائها فلا ينتهي إلى حد. ولقد حاولت غير مرّة أن أسمع فيها ولو أصداء خافتة لصرير العجلات، وقوقعة الشهوات، وتطاحن الغايات. أو أن أبصر فيها وجوهاً في المشارق تكشّر لوجوه في المغارب كما يكشّر الذئب للكلب أو الضبع للذئب، فما استطعت أن أسمع غير قلب الكون نابضاً في ضلوع الأرض، ولا أن أبصر غير ثغر البحر لاصقاً بثغور الجبال والأودية.

إي، رهيبة ومليئة بالأسرار هي تلك السكينة البيضاء ـ سكينة الأرض المنكمشة على ذاتها تحت دثار كثيف من الثلج والجليد. وقد انقطعت أنفاسها وشلّت عضلاتها حتى لتحسبها المومياء في هجعة الأبدية. وأنت لو بذرت في تلك السكينة جميع مشاكل الناس لما نبتت منها ولا بذرة. فالمشاكل لا تنبت إلاّ في العقول التي بعضها في النور وجلّها في الظلام، وإلّا في القلوب التي تمشي على رؤوس الحراب فتبتاع المجد الرخيص بالدم الغالي واللذة الظاعنة بالألم المقيم.